بيروت

تاريخها وآثارها

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

البحث الثاني عشر

مشاهير بيروت قبل العرب

لم تخلُ بيروت من مشاهير عظام شرَّفوهـا بآثرهم في الزمن الذي سبق عهـد الاسلام منهم وثنيون ومنهم مسيحيون

فاوَّل من مهم اشتهروا في ايام الدولة الرومانيَّة الا [illegible] ونوس الفينيقي الذي عاش قبل المسيح بزمن طويـل حتى زعم البعض انهُ [illegible] موسى النبيّ . قالوا ذلك حدساً وانهُ الا وهمٌ لا سند لهُ والعلماء يرجحون اليوم انهُ عاش في القرن الرابع قبل المسيح ولد في بيروت وصار كاهناً للاوثان وانما كان عارفـاً بامور بلادهِ فدوَّن تقاليد قومهِ واخبار وطنهِ فاخذتها يدُ الضياع إلَّا ما نجا منها منقولاً في كتب الفيلسوف الجبيليّ فيلون وفي تاريخ اوسابيوس القيصري لاسيما مـا رواهُ من اساطير القدماء وخرافاتهم

ولعلَّ فينيقيًّا آخر من بيروت اسمهُ ﴿مناسياوس﴾ او منّي (Mnaseas) تقدَّم عهد السيد المسيح روى لهُ القدماء كتاباً في الخطابة وفي المفردات اليونانيَّة

واما بعد المسيح فان بيروت قد تشرَّفت بعددٍ من العلماء منهم فلاسفـة ومنهم لغويُّون وبعضهم فقهاء واطباء

فمن الفلاسفة اشتهر في القرن الاوَّل للميلاد ﴿ اغناطيوس ثمّار﴾ (Egnatius Celer) من الفلاسفة الرواقيّين كان مولدهُ في بيروت ثمَّ رحل الى رومية في عهد نيرون

واصاب فيها بعض السمعة بخطبهِ في دواوين المحاماة

وفي اواخر ذلك القرن واوائل القرن الثاني للمسيح في عهد القيصرين ترايانوس وادريان عُرف الفيلسوف البيروتي ﴿هرميبوس﴾ (Hermippus) كان هذا تلميذاً للفيلسوف فيلون الجبيلي وانحاز مثلهُ الى مذهب افلاطون. ألّف باليونانيّة كتباً في التنجيم وتفسير الاحلام

وكان قريباً من زمانهِ احد مواطنيهِ الفيلسوف ﴿ثاودورس﴾ المولود في بيروت في اواسط القرن الثاني تشيَّع مثلهُ لمذهب افلاطون في الفلسفة

وفضّلهُ في الشهرة معاصرهُ ﴿كالڤيسيوس تورس﴾ (Calvisius Taurus) ولد ونشأ في بيروت ثم تخرَّج في رومية واعتنق مذهب افلاطون ومن تآليفهِ كتاب الفرق بين تعاليم ارسطو وافلاطون وشرح بعض مصنَّفات افلاطون وكتب في الاجساد الهيولية والارواح المجرَّدة

ومن مشاهير الكتبة في القرن السادس احد علماء الطبيعة المسمّى ﴿اناطوليوس بندانوس﴾ (Anatolius Bindanus) كان بيروتياً والّف كتاباً في تاريخ الطبيعة في عدَّة مجلّدات

أما اللغويون فاصاب بين الرومان سمعةً واسعة الاستاذ البيروتي ﴿مرقس ڤاليريوس بروبوس﴾ (M. Val. Probus) من اهل القرن الاوّل للميلاد فبرزَ في المعارف اللغويّة والفنون الادبيَّة وقد اطراهُ المؤرخ اللاتيني سويتونيوس في كتابهِ عن اللغويين الرومانيين. وقد تفرَّغ بروبوس لتنقيح كتب اللغة وشرح قصائد الشعراء اللاتينيّين كڤرجيليوس وهوراسيوس وصنَّف التآليف الممتعة في الفصاحة والبيان والخطابة واصول اللغة اللاتينيّة وخاض في ابحاثٍ اخرى ادبيَّة شاع بها فضلهُ واحرز لوطنهِ بيروت ذكرًا طيباً

وفي زمنهِ كان اللغوي ﴿لوپركوس﴾ (Lupercus) البيروتي المولد اخذ عنهُ الرومانيُّون في عهد كلوديوس قيصر في اواسط القرن الاوّل فألّف كتباً عديدة في اللغة اليونانيّة وكتب ايضاً عن مصر ووصف بعض مدنها

أما الاطبّاء فلم يُعرف منهم سوى اسطراطون (Strato) البيروتي ألّف كتباً في معالجة الادواء امتدحها جالينوس في كتبهِ

وقد مرَّ ذكر الفقهاء الذين اشتهروا في بيروت بين اساتذة مدرستها الفقهيَّة الشهيرة اذ كانت في عهدة الرومان الوثنيين وكان هؤلاء يعلمون فيها ولم يكن اصلهم منها. وسنذكر قريباً الذين اشتهروا منهم في العهد المسيحي

اما مشاهير بيروت المسيحيُّون فمعظمهم ممَّن تخرَّجوا في مدارسها وان لم يُعَدُّوا من مواليدها. فمنهم احد كبار اساقفة الكنيسة الشهير بمجزاته القديس غريغوريوس العجائبي درس في بيروت الفقه الروماني مع اخيه ثاردورس في اواسط القرن الثالث ثم سُقف على مدينة قيصريَّة فردَّ اهلها الى النصرانيَّة

وفي مدرسة بيروت تخرَّج احد شهداء الكنيسة في اواخر القرن المذكور اسقيان او اسيان مع اخيه اداسيوس. وُلدا في ياغا من اعمال بمفيلية في آسية الصغرى ثمَّ قدما بيروت طلباً للعلوم فانصبَّ اداسيوس على علم الفلسفة والآداب وتخصَّص اسقيان بدرس الحقوق ومنحهُ الله في تلك المدينة نعمة الايمان واضحى فيها قدوة الدارسين لا يأخذهُ في دينهِ لومة لائم الى ان ختم حياتهُ بالاستشهاد في مدينة قيصريَّة فلسطين وكان ذهب اليها ليواصل دروسهُ على احد اساطين العلم الاسقف بمفيل فاوز بركلسيانوس ومكسيموس حكَّاما بها في مناهضة النصرانيَّة رأوقعهُ حكم المدينة اوربينوس وعرض عليهِ جحود ايمانهِ فأبى كل الاباء فقُتل شهيداً(١)

وفي بيروت ايضاً درس في القرن الخامس اخوان آخران اسمهما يوحنا واركاديوس نشر الخوري الالماني جورج غراف (G. Graff) قصَّتهما العجيبة (في المشرق ١٢ [١٩٠٩] : ٦٩٥—٧٠٦) عن احد مخطوطات المكتبة الفاتيكانيَّة القديمة المكتوب سنة ٨٨٥ م

وقد افادنا المؤرخ زكريَّا الخطيب في ترجمة ساويروس الانطاكي انهُ درس معهُ الحقوق الرومانيَّة في بيروت في اواخر القرن الخامس للمسيح واتانا في تاريخهِ بعدَّة معلومات عن مدرسة بيروت الفقهيَّة واساتذتها وسيرة طلبتها وعن طريقة التعليم في معاهدها ونظامهِ

١) اطلب تفاصيل اخبار حياتهِ وموتهِ في المشرق (٩ [١٩٠٦] : ٦٨٤ و ١٠٧٢) بقلم الطبب الذكر الاب فردريك بوفيه احد اخوتنا المرسلين والمتوفَّى شهيد محبَّتهِ في خدمة الجيوش في الحرب الكونيَّة سنة ١٩١٦

امّا اساتذة بيروت النصارى الذين اشتهروا بالتعليم في مدرستها الحقوقيّة فكثيرون منهم في اواسط القرن الخامس ﴿اودكسيوس﴾ لهُ شروح على متن بعض الكتب الفقهية . خلفهُ في التعليم ابنهُ ﴿لاونتيوس﴾ الذي ورد ذكرهُ في تاريخ زكريّا الخطيب السرياني بين اخبار ساويروس الانطاكي سنة ٤٨٧ فعلّم نحو خمس عشرة سنة ثمّ رُقّي الى مناصب دولية شريفة كحاكم ديوان الشرق (præfectus prætoru) ورئيس العسكر (magister militum) وخوّلهُ الامبراطور انستاس رتبة البطارقة (١

واشتهر في القرن السادس بين اولئك الاساتذة الفقهاء ﴿ديوستينس ودُمنينوس وكيرلّس﴾ وقد أَلّف هذا الاخير دليلًا لتعليم الحقوق كان الطلبة يتهافتون عليهِ لحسن نظامهِ ووضوحهِ

واشهر منهم ﴿اناطوليوس ودوروثاوس﴾ اللذان استدعاهما الامبراطور يوستنيان لاعادة النظر في الشرائع الرومانيّة وتنقيحها وتنظيمها وتبويبها كما مرّ فاستحقّا شكر الملك وكلّ الاساتذة والمتعاطين فنّ المحاماة

ولم يُذكر في بيروت الى أيّام العرب سوى عشرة اساقفة (راجع مقالتنا في اسقفيّة بيروت (في الشرق ٨ [١٩٠٥] : ١٩٣–١٩٦) اوّلهم كوَرْتوس تلميذ الرسل وعاشرهم ثلاسيوس في القرن السادس واكثرهم شايعوا لاحدى بدعتي اريوس او اوطيخا اللهمّ الّا تيموثاوس احد آباء المجمع القسطنطيني الاوّل (سنة ٣٨١) ويوحنّا في اواخر القرن الخامس الذي ناصبَ بعض الاشرار الذين كانوا يتعاطون اعمال السحر في بيروت وهو الذي ساعد الناسك رُبلا السيناطي في بناء دير في الجبل قريباً من بيروت . كما ذُكر في الميناون اليوناني في اليوم ١٩ من شباط (٢

وفي الميناون المذكور في اليوم التاسع من تشرين الثاني ذكر القديسة ﴿مطرونا﴾

---

١) اطلب ترجمة ساويروس في مجلة الشرق المسيحي ; (ROG, IV, 343; 543 et V, 71 293) ثمّ مقالة المسيو كولينه (M. P. Collinet) عن لاونتيوس المذكور C^rs R^us de l'Acad des Insc. et Belles Lettres, 1921, p. 77-84

٢) اطلب اعمال القديسين للبولنديين (Acta Sanctorum, 19 Février, p. 136-137)

التي شيَّدت مع ابنتها تاردوطا في حمص اولًا ثم في بيروت ديرًا للراهبات تقدَّست فيها عدَّة عذارى

فهؤلاء بعض الذين وجدنا لهم آثارًا في بيروت ولا جرم انَّ كثيرين غيرهم شرفوها باعمالهم فنُقدت اخبارهم مع ما اخنى عليهِ الدهر واضاعهُ

البحث الثالث عشر

خمول بيروت بنكبات الزلازل

انَّ المقام الرفيع الذي بلغتهُ بيروت في عهد الرومان بترقيها المدنيّ والادبيّ جعلها في مقدمة مدن الشرق تمشي الثنيان مع انطاكية والاسكندريَّة. وكان بصرُها يطمح الى ما فوق ذلك لولا ما دهمها من النكبات في اواسط القرن السادس للميلاد نعني بذلك الزلازل الهائلة التي حلَّت بها في تلك المدَّة ولاسيما زلزال سنة ٥٥١ م الذي أهبطها الى الدقعاء وشوَّه كل خاص بها فأصبحت اشبه بتلال من الردم والخراب (١

على انَّ ذلك الزلزال لم يَحُل من سوابق اذاقت غير مرَّة البيروتيين بالخطر الذي يتهدَّدهم ليكونوا منهُ على حذر

واوَّل زلزال ورد فيهِ ذكر بيروت رواهُ المؤرخ اليوناني تاوفان في السنة ٥٨٣٤ للعالم وقال هناك انَّها توافق السنة ٣٣٤ للميلاد (٢ ثمَّ وصف الزلزال بما تعريبهُ:

«وفي اثناء ذلك حدث في بيروت من مدن فينيقية زلزلة هائلة خرب بها قسم كبير من المدينة فذُعر بسببها كثيرون من المشركين الذين هناك وطلبوا الدخول في الكنيسة واعدين بحفظ رسوم الدين النصراني. لكنهم بعد فروغ الخطر عدلوا الى رتب دينية مختلطة تقلَّدوا فيها رتب الكنيسة»

وما لبثت بيروت فاصلحت شؤونها ورمَّمت ابنيتها وعادت الى ما كانت عليهِ من العزّ والبهاء.

وذكر مؤرخو اليونان زلزالين آخرين في سنتي ٤٩٤ و٥٠٢ دمَّرا سواحل

---

١) اطلب في المشرق ٢ [١٨٩٩]: ٩٧١ مقالة حضرة الاب لامنس «الزلازل في بيروت»

٢) هذا الحساب على بناء انَّ وقوع سنة الميلاد في ٥٨٠٠ للعالم واتاريخ القسطنطيني يجعلهُ عادةً في السنة ٥٨٠٨

الشام وقوّضا مدينتي صور وصيداء إلّا ان بيروت لم ينلها من تلك الآنة الّا ضررٌ قليل اخصُّهُ سقوط كنيس اليهود فيهـا في ٢٢ آب من السنة ٥٠٢ على مـا رواهُ المؤرّخان زوناراس ومالالا

وكأنّ تلك الكوارث كانت كمقدّمات لشرور اعظم توالت في فينيقية عموماً وبيروت خصوصاً في اواسط القرن السادس . وكان اوفرها تأثيراً واوسعها خرابـاً الزلزال الذي حدث سنة ٥٥١ للمسيح وقد فصّل المؤرّخون خبر تلك الجائحة الهائلة التي عمّت مدن ساحل الشام ودمّرت كلّ الخاء بيروت وابنيتها قيل انّ البحر جزَر الى مسافة ميل من الشاطئ ثمّ ارتدّت امواجهُ كطود شاهق واغرقت كل السفن ثمّ انقضّت على البلد فلم يسلم منها بناء. قال ميخائيل الكبير في تاريخهِ (٢ : ٣١١) :

« لمّا حدث ذلك الزلزال في بيروت ومدن فينيقية اندحرت المياه بأذن الله الى مسافة ميلين فانكشفت اعماق البحر وظهرت فيهِ سُفن مشحونة بالبضائع ومال كثير فحمل الطمع الاهلين ولم يردّهم الخوف فتقاطروا ليحرزوا تلك الكنوز فحملوها واجمين بسرعـة الى دورهم واذا بالمياه عادت بغتة فاغرقتهم جميعاً . اما الذين كانوا على الساحل فهربوا لينجوا بنفسهم من الغرق إلّا ان جدران الابنية المتساقطة بفعل الزلزال قتلتهم فماتوا تحت الردم وانتشر الحريق في المدينـة بعد خرابها مدّة شهرين فحوّل مبانيها الى رماد وحجارتها الى كلس »

دُكّت ابنية بيروت الشامخة واصبحت قاعاً صفصفاً وهلك تحت انقاضها جمٌ غفير من الاهلين والاجانب الساكنين فيها . وقد اذاقت المنيّة كأسها المرّ نخبة الشبّان المتقاطرين اليها لدرس الحقوق في مدرستها الرومانيّة التي كانت تاجاً بهيًّا على مفرقها تُباهي بهِ اعظم المدن اخواتها

ولم يرضَ ارباب الامر ان تبقى في قبرها فاسرعوا الى اصلاح ابنيتهـا وترميم معاهدها وكانوا في اثناء ذلك نقلوا مدرستها الفقهيّة الى صيداء ثم اعادوها الى بيروت بعد سنين قليلة على الرغم من زلزال آخر حـدث سنة ٥٥٤ . ثم عـادت الامور الى مجاريها واخذت الدروس تسير سيرها القانونيّ بحيث استبشر الناس ببلوغها عظمتها السابقة واذا بحريق هائل نشب في احيائها سنة ٥٦٠ فكان لها كثالثة الاثافي وختام هلاك المدينة في ذلك القرن فصرخ احد المعاصرين يرثيها وجعل الكلام عن لسان بيروت فقالت :

« ويلاه انا اشأم المدن حظًا واسوأها حالًا رأت عيني جثث ابنائي متراكمةً في ساحاتي دفنتين في ظرف تسع سنين رماني فولكان (اله النار) بسهامه المتقدة بعد ان صدمني نبتون (اله البحر) بتياراته العاتية. وأسفي على جاني السابق طعنهُ الدهر فأحالني الى رمادٍ. فيا عابري الطريق ابكوا لسوء طالعي واندبوا بيروت المضمحلّة »

وبقيت بيروت مسجّاةً بكفنها مطمورة تحت رمادها ردحًا من الدهر كما اشار الى ذلك السائح انطونين المعروف بالشهيد لمّا اجتاز بجوارها في اواخر ذلك القرن السادس قال :

« وصلنا الى المدينة الفانتة الجمال بيروت التي فيها كانت قبل هذه السنين تلك المدرسة الحقوقيّة الذائعة الصيت . وهي الآن قد استولى عليها الخراب ». والحقّ يقال انّ بيروت بعد تلك النكبة لم تَعُد الى رونقها السابق مع نهضتها في القرون الوسطى في عهد الصليبيين وفي زمن مماليك مصر . فبقيت كمدينة صغيرة حتى اشرق عليها نور القرن التاسع عشر فنفضت عنها ثوب خمولها وجلست ثانية على منصّة المجد . والامل معقود على رقيّها الثابت بفضل فرنسة وليّة امرها وصديقتها وحاميتها

(لم تتمّة)

لائحة للاصطياف في لبنان

لجناب المهندس اميل افندي خاشو

لمّا عُرضت قبل ثلث سنين ميزانيّة لبنان الاقتصاديّة ولحظنا عجزها البالغ الى ما يزيد عن ٥٠٠ مليون فرنك ألححنا في لزوم تنمية الاستنتاج بالفلاحة ورأينا انّ في ذلك النجاة من موقفنا الحرج . وهاك اليوم قد دخل في الحساب عاملٌ غير منتظر لعلاج دائنا الاقتصادي وإنّ ذاك الّا الاصطياف . ولسنا نجهل ان الاصطياف لا